# استراتيجية الحجاج في خطب البشير الإبراهيمي - مقاربة تداولية

# The argumentation strategy in the speech of El-Bashir Ibrahimi A Pragmatic approach

**الدكتور باجي بن عودة***
tarmoucha@gmail.com
المركز الجامعي نور البشير – البيض (الجزائر)

تاريخ الإرسال 2020/02/01 تاريخ القبول 2020/09/26 تاريخ النشر 2020/12/01

**الملخّص**: أخذ الخطاب المشفوه يفرض نفسه في وقتنا الحالي، كما لو أنه إنتاج فني أو أدبي في خدمة أهدافه النفعية في استعمال اللّغة وأمام الحاجة الملّحة لهذا المشفوه في المجتمع ودوره الفعّال في نشر ما له علاقة بالتوعية وصناعة الرأي عن طريق فلسفة الموقف ، المثقل بفائض المعنى الموصول بدراسة الحجاج من اللغة الى الخطاب الذي يؤمن بالطبيعة الحجاجية للغة من خلال الروابط والسلالم الحجاجية، التي تُسهم في إثراء الجانب التداولي للغة، والذي بدوره أفضى إلى نظرة أوسع تتمثل في أن كل نص أو خطاب يملك من الخصائص الحجاجية ما يعينه على تبليغ المعاني ؛لإنّ حاجتنا إلى معرفة طرائق الإقناع والتواصل.

قد أضحى الحِجاج مطلباً أساسياً في كلّ عمليّة اتّصالية تستدعي الإفهام والإقناع، فالمجتمع يتّجه يوماً بعد يوم نحو علوم التحريض والدعاية المغرضة والاستفزاز اللامتناهي، عن طريق البلاغة الموصولة بالقيم الحجاجية، والمرتبطة بالذوق والجمال والمجاز من غير تقعيد ولا تقنين ؛لتحقيق مقصدية الإبانة والتوصيل والإفهام ثم التأثير. في كنف الحضارة الغربية التي أفرزت تحديات كبيرة – على كافة الأصعدة الأمر الذي أدى إلى مزيد من التفاعل البشري والانفتاح الثقافي والتنازع الحضاري . أن نفهم الصور التي تحاصرنا والمنعكسة على الخطاب في كل مكان بالممكنات التعبيرية التي تحتويها؟ وكيف نتأولها من خلال خطاب مشحون يوازن بين إمتاع العقل وإشباع العاطفة ، يتفاعل فيه العقل من غير انغلاق ولا ذوبان، ولا غرابة إن قلنا: إن ما يخلِّد النص عبر الزمان والمكان، تلك اللمحات الفنية والابداعية ، وما يكْشف من أسرار النص المشفهوه بعد كل قراءة واستماع والتي هي في حد ذتها تبقى أسيرة لغة النص، هذه اللغة التي تبرز قدرة الخطيب المبدع في كيفية تعامله معها، ومدى بعده عن السائد، والمتعارف عليه من المتكرر سماعه، ومألوف قوله، ولتنوع الأهداف المرتبطة بالإصلاح. فالإبراهيمي الشخصية الفذة نكاد نجزم أنه الأوحد في هذا العصر، الذي استطاع أنّ يماهي منتوجه القولي المنبري المرتبط بالمقدّس الزماني والمكاني بماهية منتوجه المكتوب، ففاعليته الخطابية وتعبيراته الفريدة سواء على المنبر خطيباً، أم جلس إلى الصحيفة يحبر المقالة.

**الكلمات المفتاحية**: الخطاب المشفوه، الحِجاج، البلاغة، المسجد ،لسانيات النّص، الخطيب الإبراهيمي، المتّلقي ،الزمن والمكان المقدسان ،الانفتاح الثقافي والتنازع الحضاري.

**Abstract**:

Oral discourse imposes itself recently, as if it is an artistic or literary work in service of pragmatic purposes in using language. By the necessary need f of this type of discourse in our society as well as its effective role in spreading consciousness and making opinions through the philosophy of the situation which is full of meaning related to studying argumentation from

*المؤلف المرسل

language to discourse that adopt the idea of the argumentative nature of language through the connections that enrich the pragmatic aspect of the language.

The present paper deals with one f the prominent speakers "ElBachir El Ibrahimi" whose speeches are brilliant models of persuasive discourses, and we could consider him as the only one in this era, who managed to identify and link his speech, which is characterized by religious aspect, to his written product due to his discursive efficiency and rhetoric expressions.

**Keywords**: oral discourse, argumentation, rhetoric, mosque, rhetoric, text linguistics, El Brahimi the speaker, recipient, sacred time and place, cultural openness, clash of civilizations.

لا يزال وعاء اللّغة الذي استقطب حقول تحليل الخطاب، والمقاربة اللّسانية التي يتشبث مؤسسوها بمنطق الصرامة والمعيارية حيث تضييق مجالات المعرفة، وبين من يدعون الى نهج المرونة في الاقتراب من فضاءات الخطاب، باعتباره المنطقة الحرة، أو الموضوع المشترك الذي تختلف عليه التخصصات وتتفاعل معه الروافد المعرفية. وقد قاد وجود حلقة مفقودة بين المفهومين إلى ظهور مدارس جديدة لسانيه" اللسانيات الملفوظة " التي أكدت على وجود علاقة اتصال وثيقة بين اللسانيات وتحليل الخطاب؛ لأن اللّغة لا تحقق هدفها وغرضها التواصلي التبليغي بالاكتفاء بالمجرد البنائي دون الجانب الحيوي الروحي المتمثل في غرضها الأساسي التواصلي، وهنا يظهر مأزق اللّسانيات ومحدوديتها على الأصح في معالجة إشكالية الخطاب، لأنها تحصره في نطاق الجملة باعتبارها الوحدة اللّسانية الكبرى القابلة للوصف والتحليل إلى وحدات اكبر من قبيل الملفوظ والنص والخطاب، فقد ترك التحليل اللّساني للغة مجالا واسعا، وفضاء خصبا لدراسة الخطاب أو الملفوظ أو النّص، يتطلع إلى بناء رؤية منهجية مستحدثة لتحليل الخطاب في أبعاده الدينية واللغوية والسيميائية والأدبية والسياسية ،على أن اللسانيات الحديثة والخطاب لا يمكن أن يستغني كل طرف منهما عن الطرف الثاني كأنهما وجهان لعملة واحدة.

وفي ضوء العناية المتزايدة بوظائف الخطاب أو النّص التواصلية والتأثيرية والجمالية في تتبع كيفية الانتظام والتماسك والاتساق ،وذلك من أجل مقاربة الخطاب والنص وحدودهما في اللّسانيات المعاصرة من خلال بلورة المفاهيم النظرية والإسهامات التطبيقية في ميدان توصيف النصوص في تكسير حدود الجملة وتجاوز دلالتها في الانفتاح على النّص ، من مجال التركيب الجملي الى الانظمة الكبرى ممثلة في النصوص. على سبيل الإجابات الممكنة على سؤال العلاقة الممكنة بين الظاهرة اللّسانية كحاصل معرفي ، وبين الحدث التخاطبي كسيرورة منتجة.ولهذا ركزت الأبحاث اللّغوية منذ القدم على أغراض اللّغة ؛ لأنّ كلّ متكلم يرمي إلى تحقيق مقصدية معينة في خطابه من أجل الإقناع والتأثير على الآخرين ، وجعل المتلقي يذعن لرأي غيره ويقبل بما يقول، وبما أنّ اللّغة هي شفرة رمزية مهيمنة في العمليات التواصلية تعدّ حجاجاً تفضحه البنية اللغوية المجرّدة ،فإنّه قد يكون من المفيد أن تُدرس دراسة تداولية، ترتبط بموضوع تحليل الخطاب سواء كان في شكله المنطوق أم المكتوب العادي أم الأدبي.

وفي ظلّ التحولات المعرفية أخذ الخطاب المشفوه يفرض نفسه في وقتنا الحالي، كما لو أنه إنتاج فني أو أدبي في خدمة أهدافه النفعية في استعمال اللّغة. وأمام الحاجة الملّحة لهذا المشفوه في المجتمع ودوره الفعّال في نشر ما له

علاقة بالتوعية وصناعة الرأي عن طريق فلسفة الموقف ، المثقل بفائض المعنى الموصول بدراسة الحجاج من اللغة إلى الخطاب الذي يؤمن بالطبيعة الحجاجية للغة من خلال الروابط والسلالم الحجاجية، التي تُسهم في إثراء الجانب التداولي للغة، والذي بدوره أفضى إلى نظرة أوسع تتمثل في أن كل نص أو خطاب يملك من الخصائص الحجاجية ما يعينه على تبليغ المعاني.

وقد أضحى الحِجاج مطلباً أساسياً في كلِّ عمليّة اتّصالية تستدعي الإفهام والإقناع فالمجتمع يتّجه يوماً بعد يوم نحو علوم التحريض والدعاية المغرضة والاستفزاز اللامتناهي، عن طريق البلاغة الموصولة بالقيم الحجاجية والمرتبطة بالذوق والجمال والمجاز من غير تقعيد ولا تقنين؛ لتحقيق مقصدية الإبانة والتوصيل والإفهام ثم التأثير. في كنف الحضارة الغربية التي أفرزت تحديات كبيرة – على كافة الأصعدة الأمر الذي أدى إلى مزيد من التفاعل البشري والانفتاح الثقافي والتنازع الحضاري . أن نفهم الصور التي تحاصرنا والمنعكسة على الخطاب في كل مكان بالممكنات التعبيرية التي تحتويها؟ وكيف نتأولها من خلال خطاب مشحون يوازن بين إمتاع العقل وإشباع العاطفة ، يتفاعل فيه العقل من غير انغلاق ولا ذوبان، ولا غرابة إن قلنا: إن ما يخلِّد النص عبر الزمان والمكان، تلك اللمحات الفنية والابداعية.

وما يكْشف من أسرار النص المشفهوه بعد كل قراءة واستماع والتي هي في حد ذاتها تبقى أسيرة لغة النص، هذه اللغة التي تبرز قدرة الخطيب المبدع في كيفية تعامله معها، ومدى بعده عن السائد، والمتعارف عليه من المتكرر سماعه ، ومألوف قوله، ولتنوع الأهداف المرتبطة بالإصلاح. فالإبراهيمي الشخصية الفذة نكاد نجزم أنه الأوحد في هذا العصر، الذي استطاع أنّ يماهي منتوجه القولي المنبري المرتبط بالمقدّس الزماني والمكاني بماهية منتوجه المكتوب، ففاعليته الخطابية وتعبيراته الفريدة سواء على المنبر خطيباً، أم جلس إلى الصحيفة يحبر المقالة.

في ظلّ هذا الزخم برزت دعوات للبحث في الحجاج ضمن التراث اللغوي عربيا وغربيا، لتصبح منهجية قارة لدراسة الخطابات. ووفق هذه النظرية أصبح يطلق على العصر "عصر الخطابة" بالمعنى الواسع، وتصدى الدارسون للحجاج في مختلف الخطابات السائدة فيه. لأنّه ظلَّ مستعصياً عن الحصر، لأنَّ مفاهيمه تتعدد ولا تستقر على حال ، ومن ثم فإننا بإزاء مفهوم تاريخي متحوّل بتحول الأعصر، متبدل بتبدل مشاغل القراء وثقافتهم وأحوالهم وملابسات بيئتهم، ولا شك أنّ الانطلاق من هذه النظرة يدفعنا إلى القول إنَّ موضوع البحث–أي بحث– غير منفصل عن الأدوات النظرية التي تستخدم لفهمه. فهذه الأدوات تضطلع بدور كبير في تشكيل ملامح المادة المدروسة واستقصاء ما فيها من ثوابت ومتغيرات.

فالمبدع الخطيب حينما يُعبر عن حقيقة ما بالإقناع بالتأثير في نفس المخَاطب؛ لتقبَّل هذه الحقيقة أو التمكيّن لها عن طريق الكسب العاطفي الخالص ،فاستمالة القلوب والوجدان إنما هو السبيل الممهد إلى الاقتناع الذي هو ذو طابع عقلي، المتكلم قد يشحن الكلمة شحنة إقناعية عاطفية؛ فتكون الكلمة ترهيبية أو ترغيبية، فتتحول

الكلمة عندئذ إلى إشارة، لا لتدّل على معنى فقط وإنما لتُثير أيضا في الذهن إشارات أخرى ، وتجلب إلى داخلها صورا لا يمكن حصرها فتثير في المتلقي شعور الرغبة أو الرهبة تمهيدا لحمله على إتيان عمل ما أو سلوك ما.

ومن هنا كيف يمكننا في ظل التغيرات العالمية المعاصرة، وفي مواجهة مدّ العولمة، والثورة التقنية العلمية الهائلة، نسبة لميلادها وتطورها في كنف الحضارة الغربية التي أفرزت تحديات كبيرة – على كافة الأصعدة الأمر الذي أدى إلى مزيد من التفاعل البشري والانفتاح الثقافي والتنازع الحضاري ، أن نفهم الصور التي تحاصرنا والمنعكسة على الخطاب في كل مكان بالممكنات التعبيرية التي تحتويها؟ وكيف نتأولها من خلال خطاب مشحون، يوازن بين إمتاع العقل وإشباع العاطفة، يتفاعل فيه العقل من غير انغلاق ولا ذوبان؟

ولا غرابة إن قلنا: إن ما يخلِّد النّص عبر الزمان والمكان، تلك اللمحات الفنيـة والابداعية ، وما يكْشف من أسرار النّص المشفهوه بعد كل قراءة واستماع والتي هي في حدّ ذتها تبقى أسيرة لغة النّص، هذه اللّغة التي تبرز قدرة الخطيب المبدع في كيفية تعامله معها، ومدى بعده عن السائد، والمتعارف عليه من المتكرر سماعه ، ومألوف قوله.

ولتنوع الأهداف المرتبطة بالإصلاح، فالإبراهيمي الشخصية الفذة نكاد نجزم أنه الأوحد في هذا العصر، الذي استطاع أنّ يماهي منتوجه القولي المنبري بماهية منتوجه المكتوب، ففاعليته الخطابية وتعبيراته الفريدة سواء على المنبر خطيباً، أم جلس إلى الصحيفة يحبر المقالة، يتخطى الازدواجية التي ذهب إليها أفلاطون، فالمتلقي يجد نفسه حيال ما يتلقاه عن الإبراهيمي من بيان مشافهة وما يتلاقاه من نصوص مكتوبة تحت ذات التأثير التواصلي الفروسي، فكأنه يشقق القول سواء ألقاه مشفوها أو محروفاً من نفس البوتقه ومن ذات المفاعل الخطابي الأصيل ، كما أنّ كلماته على التسطير متوثبة متحركة كأنّ لها أيادي تشدّ بخناق القارئ وتهزّه وتدفع به في وجه الوعي والصحوة والانبعاث.

ومن وجهة نظرنا أن المسجد من أهم العناصر التي تبعث على جماليات النّص، إذ أن المكان المقدس الملبِّي لأشواق الروح يَبني لغة خطابية عبر الجمالية المكانية حيث تبرز تعامل الخطيب مع العنصر المكاني وجوانب رؤيته له، والأهداف المتوخاة من ذلك، وإذا ما عدنا إلى الخطب على منابر المساجد. قديما وحديثا لاحظنا بجلاء أن الخطيب العربي المقتدر ارتبط كثيرا بالمكان المقدس الذي كان سبباً في فويضاته وتجلياته، مما دفعنا إلى اختيار موضوع "الخطب المسجدية للشيخ البشير الإبراهيمي" نتتبع مسالك فنيات بناء الخطاب الديني وهندسة التأثير في المتلقي كما تتجلى الدوافع الذاتية في التأثّر بالموروث البلاغي الذي استوعب النصوص العربية كافة، والنص القرآني عامة، ولم نتوان عن البحث في سبل بلاغتها وجماليتها، إلا أن تناول هذا الموروث أصبح مجرد تكرار مُمل. مما جعل غيرتنا على هذا العلم القيّم والرغبة في تجديده، ومسح الأتربة عن ذهبه بما يخدم النّص العربي، هي أهم ما دفعنا لاختيار هذا الدراسة المرتبطة بالخطاب والحجاج

يُفترض في البحث بشكل رئيسي أن خطب الإبراهيمي خطب تداولية أقرب الى الدراسات الوظيفية، حين تتعاضد المقومات الحجاجية الإقناعية وإمكانات التعبير الأسلوبي لإنشاء بلاغة نثرية تتجادل فيها الوظيفة التعبيرية

والمقصدية التأثيرية، وأنّ الخطيب يمتلك كفاءة تداولية تخوّل له التصرف ، والتلاعب بالألفاظ بالتأليف الموسوعي الذي تقوم بلاغته على تعدد الأشكال والأنواع والصيغ والأنماط، المتلائِمة مع المجال التداولي، في استعمال الحجّة التي يتقمصها باعتبارها مدخلا لإقناع المستمِع بقضايا الأمة وهمومها المصيرية، حيث شكلت القصدية والمقبولية والمقامية مصباً لأنواع الخطاب المختلفة ونقطة تقاطع.

وقد مكننا التحليل من استخلاص أبرز الفرضيات التي حصرناها في الاطار النظري لهذه الدراسة، من خلال تتبع واستقصاء الاستراتيجيات التي انبنت عليها بلاغة الخطاب الإقناعي، التي جعلت من الخُطبة منبرية كانت أو إعلامية مرتكزاً تواصلياً بلاغياً فعّالاً ومؤثراً، وأن التداولية هي فضاء مُقارِب ومُسدِد بما تمتلكه من أدوات فاعلة لبلوغ فصل الخطاب، وأن أهمّ وظيفة للخطبة المتفاعِلة مع الإنسان في بعده العقلي والعاطفي، قد خضعت لموجهات النسق الفكري والعقدي في الفهم والتآويل، فعلاً وممارسةً عمليةً مدارها على وظائف الكلام وليس على الأشكال في ذاتها مفصولة عن المقاصد.

وقد استوجب ذلك مراعاة البعد الحجاجي التداولي في التلّقي والتآثير بهدف خلق ردود أفعال تُحرض على الفعل وتحثّه على اتخاذ الموقف ، وما من شك أن اختيار هذا الوضع التواصلي في خطب الإبراهيمي يمُثل استراتيجية بلاغية مكنت الخطيب من تحقيق كثير من المقاصد الحجاجية والغايات الإقناعية التي عينها ، لمجابهة أوضاع ما بعد الاستعمار ، وهو ما استدعى الاعتناء بشروط الإرسال الجيد؛ أي قوانين إنتاج الخطاب الإقناعي، وهي نتيجة يمكن أن تشكل إطارا مهما للبحث عن القيّم التداولية في مختلف أشكال الخطاب وأصنافه ،التي تتجاوز المستوى اللّغوي في ضوء الكفايات التأويلية التي يفترضها الخطيب في متلقيه، يتآزر فيها البعد الجمالي والغرض التداولي، لذلك سيكون هذا البحث إحياء للحسّ التأويلي لدى القارئ العربي، ليتمكن من قراءة الخطب المسجدية التي ليست وليدة مادة تضمينية، أو تحمل معاني قارة، وإنما هي ذات أبعاد أنثروبولوجية وإيديولوجية واجتماعية.

وأهم ما نبتغيه إضافة الجديد للدرس البلاغي المعاصر أو بالأحرى المساهمة في ما اصطلح عليه الخطابة الجديدة أو خطابة الحِجاج، سيما أن الدراسات حول هذا النوع من الخطابات تكاد تكون محدودة، وكذلك، الإحاطة بالتقنيات الحجاجية الموظّفة الخاصة بفنيات بناء الخطاب الديني وهندسة التأثير في الزمان والمكان المقدسين . ولاشك أن الكلّ يجمع على أنّ هذا القرن الذي اتخذ النّص هدفا له قد ارتبط بتنوع المناهج؛ لأنّ الحمولة اللّغوية التي يحفل به الخطاب الديني بصفته مدونة لسانية في البدء، يفرض على الباحثين تأمل اللّغة، وإحالاتها التداولية.

ومنطق التفاعل الاقناعي والحجاجي بين المتخاطبين في هذا الخطاب يلزمنا دراسة بنياته المهمّة اللّسانية–البلاغية–السيميائية ،فتواصلية الخطاب الديني جعلته حافلا حد التميز بطاقات تداولية لم يحفل بها أي خطاب الوقوف على ضرورة التعامل مع الخطاب من منطلق تداولي شمولي مؤسَسَ على شساعة مباحثه، وتعدد الحقول المعرفية التي احتضنت قضاياه، فالطريق نحو بناء صرح المنهج التداولي في دراسة الخطاب وعلاقة العلامة بمستعميلها ومؤوليها، ينبغي أن يبدأ بمحاورة هذه المرجعيات المعرفية التي تختزن أصوله الإبستمولوجية ومقدماته

الاستدلالية، فالعودة إليها محاولة جادة لاستنباط النظام المعرفي المتحكم في المنهج التداولي، مثلما يشكل مدخلا نحو إعادة بناء وتركيب أدوات الوصف والتفسير والتأويل ثمّ إدراك المعايير والمبادئ التي تضبط انتاج الخطاب في ضوء عناصر السياق عند التلّفظ واستعمال اللّغة أثناء الكلام، باعتبار أنّ الحجاج مقولة لغوية وفكرية موصولة بمقامات وسياقات الخطاب لها جملة من الخصائص التّحاورية والتفاعليّة تتجاوز مستوى المفردات والألفاظ والجمل إلى مستوى النّص والخطاب.

ونحن ننشغل بالحجاج في الثقافة العربية الإسلامية، يجب مساءلة التراث الديني مساءلةً متكاملة لا تعزل المكتوب المدوّن والشفهيّ المتداول كما تداول المجتمع الظاهرة الدينية بمختلف أنواعها الخطابيّة وآثارها المعنوية الدلالية ،مهما كانت أشكال صياغتها ومهما تنوعت طبائع خطابها في فهم الخطاب الديني المشحون بالعواطف، والأشواق ،والعقائد المستمدة من بيئة الخطاب وخصوصيته تستجلي منطقه ولا تحاسب مقاصده لا تنتصر ولا تستنصر بحيث ما توظف المناهج من حيث منطقها وتأويلها قبضا على معاقل أصولها، ومعرفة الصلات والوشائج لقضايا التراث استنطاقا لنصوصه واكتشافا لأنظمته، ووقوفا على سماته المتميزة ومحمولاته العقائدية ونوازع تفاعله مع بيئة وزمان الخطاب".

وتعاملنا مع التراث والتراث الديني خاصة، تعامل يشتغل بالآلة والمنهاج ولا يُعني بالأثر الناجم عن مقاربة التراث مقاربة فكرانية، توظفه ولا تستكشفه"1، فإشكاليات مكونات الخطاب (تواصلي _حجاجي) في بنيته الداخلية والخارجية، ترتبط أساسا بقضايا الاستقبال والفهم والتأويل ، في علاقتها بأطراف الخطاب بدءاً من التشخيص الدقيق وانتهاء بالتأويل العميق تقيماً للموضوعات التي تطرحها وتسائلها عبر منهج مرن وفعّال.

ولا يقتصر عمل صانع الخطاب على عرض الاستهلالات الحجاجية عرضا استعراضيا يتولى ويتفاوت، بل إنّ عمله يتجاوز ذلك، ويتعدّاه إلى إجادة العرض وحسن البسط وهاتان القيمتان لهما صدى كبير في صناعة الاقتناع واستشارة التصديق في الجمهور الحاضر أو المفترض بوصفه مقولة تجرد أو تمثّل تستحضر أو تدرك "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ،وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخير اللّفظ، لا يكلم سيد الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة"2. فالخطيب يستعمل أكثر من خطاب مع سامعيه، لاختلاف تكوينهم ولتعدد ميولهم ودرجة استعاب كل منهم في الفهم ،ومن أجل الإقناع يختار من الأدوات اللّغوية والآليات الخطابية ما يحقق مراده، فإنه يمارس بشكل غير مباشر دوراً توجيهيا لذهن السامع الذي يفكك الخطاب، ويؤوله ضمن العناصر السياقية المتنوعة التي تسهم في ترجيح أدوات بعينها واختيار آليات مناسبة لعملية الفهم والإفهام بين طرف الخطاب في رحاب الزمان والمكان الذي يحدد لغة الخطاب التي تقود إلى المدلولات الثاوية خلفه من خلال السياق المتنوع، وعلاقات التلقي والتأثر، ثمّ الافترضات المسبقة قصد الغوص في المقاصد المتنوعة توجيها وتضامنا وتلميحا بالآليات الحجاجية والمنطقية التي تتجسد باللّغة الطبيعية".

ومما سبق، يمكن القول إنّه لا يمكن تحديد وظيفة اللّغة من وجهة نظر تداولية بمعزل عن الاستراتيجيات التي يستخدمها المرسِل، ولا يمكن تحديد هذه الاستراتيجيات التي يتوخها في الخطاب بمعزل عن المقاصد التي لديه، وعن المرسِل إليه، وإجمالا عن السياق بعناصره المتعددة."**K3** قد يطلق على الحجة أسماء أخرى مثل "الدليل" و"الاستدلال"، وحتى "البرهان" لكن هذا الاطلاق يكون من باب التجّوز أو التوسّع؛ لأنّنا نجد بين هذه الأسماء فروقا لغوية ودلالية وتداولية تقوم على شبكة التمثلات والصور التي يبنيها ويحملها الخطيب حول ذاته وذوات الأخرين والموضوع ويودّ نقلها الى المتلقي ، والتي يعبر عنها في نظرية الحجاج اللّغوي بالحجج والنتائج. فاختلاف الحضور الحجاجي بالأساس من مجتمع الى آخر، يعود الى الخلفية الثقافية والمرجعية الحضارية المهيمنة التي توجه الحدود والمفاهيم وفق قوانين تظهر وتختفي تجعل الحجاج مكونا من مكونات الخطاب بأنساقه التفاعلية اللّسانية والمقامية والتداولية.

وبناءا عليه سيتجاوز الخطاب العبارة والجملة والنّص، فتتوسع الدائرة داخل السياق موجهةً التصورات وأنظمة الحجاج في مجال الفكر داخل البرنامج الحجاجي للخطاب المتفاعل بين أطراف العملية الحجاجية والسّياقات اللّغوية وغير اللّغوية في توجيه المخاطب لدحض رأي أو ترشيح معتقد يحمله على الاذعان "وليس مقصورا على رصد تقنيات الخطاب ووسائله التي يعمد اليها المحاج لدحض رأي أو ترشيح معتقد يقتنع به المخَاطب أو يحمل على تجنبه أو إطراحه"4 والعربِ، فالحجاج لا ينحصر في دراسة التقنيات الخطابيّة التي يعمد إليها الخطيب لإقناع المخاطَب برأي أو فكرة أو اجتهاد أو ما يناقض ذلك بالمدحضات يجعله يعدل عنها، ليس كافياً لتعريف الحجاج، وحصره في المقولات اللغوية المركبة التي تتفاعل في تشكيلها فواعل مقامية وسياقية مختلفة، لها أثر في تلوين استراتجيا المحاج القولية والمذهبية والفكرية عامّة، فينجرّ عن ذلك ضرب من التّوجه"**orientation**" يُخرج بنى القول والفكر عن الحدود المرسومة رسما منطقيًّا مسبقا ولعلّ هذا الأمر هو الذي حدا ببعض من نظّر داخل دائرة هذا العلم، إلي استئناس جملة من المرجعات التي لم تعد تحصر الحدث الحجاجي في مجال المنطق والاستدلال فحسب وإن كان فيه بعض منها، ليصلوه بدوائر أخرى لها علاقة بمحتمل الوقوع كالعواطف والأهواء والنوازع."5

ويرجع اختيارنا "للخطب المسجدية" عند الشيخ البشير الابراهيمي موضوعا لهذا البحث إلى ندرة إن لم نقل انعدام الدراسات المخصصة لفحص هذا الجانب من تراثه الغني والمتشعب، فإذا كانت الدراسات العامة التي عنيت ببحث إنجازات الابراهيمي الناقد الأدبي والمفكر الاسلامي وافرة، فإنه لم توجد في حدود علمنا، دراسة اختصت ببحث تراثه النثري من زاوية بلاغية تداولية، حيث لم تتجه همم الدارسين إلى هذا التراث إلا في مناسبات قليلة وعارضة، إذ لم ير نقاد الأدب في نصوص الابراهيمي ما يستوجب العناية أو يبعث على الاهتمام، فأسقطوا من حساباتهم خطبه المنبرية؛ ولم يذكره النثر الفني، ولم يعرجوا على "تطور الأساليب النثرية"، ولم يشيروا اليه وهو من "أمراء البيان" كما لم يعنوا به وهو من "لأدباء الفقهاء." .

ونعني في هذا المقام بدراسة الحجاج في خطب الإبراهيمي من حيث الأطر والمنطلقات والتقنيّات والاستراتيجيات، وهدفنا اكتشاف أنظمة الخطاب الحجاجيّ في خطبه الموشّحة بالخصوصية والمرجعية،" لتجلية الصامت فيها من العقائد المذهبية، والرّؤى الانطولجيّة التي يبطنها الخطاب ولا يصرح بها الاّ لمحا وإيماء"6 وفي سياق الانتظامات الخطابيّة "إنّ كلّ خطاب ظاهر، ينطق سرّا وخفية من شيء ما تمّ قوله وهذا الماسبق قوله، ليس مجرد جملة تمّ التّلفّظ بها أو مجرد نصّ سبقت كتابته ، بل هو شئ"لم يُقل أبداَ إنّه خطاب بلا نصّ وصوت هامس همس النّسمة وكتابة ليست سوى باطن نفسها" فالخطاب الظاهر ليس في نهاية المطاف سوى الحضور المانع لما لا يقوله " والبحث في الخطاب من هذا المنطلق هو بحث في سلطة هذا الخطاب في حد ذاتها ومحاولة تفتيته واعادة بناءه بما يتوافق والرؤية المعاصرة.

والسلطة التي نتحدث عنها هي سلطة ايجابية اذ لا يجب علينا ان نتخيل "عالما للخطاب مقسما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض او بين الخطاب المسيطر والخطاب المسيطر عليه، بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع ان تعمل في استراتيجيات مختلفة. لأن الخطابات كتل او عناصر تكتيكية في حقل علاقات القوى قد تكون هناك اشكال متباينة منها وحتى متناقضة داخل الاستراتيجية الواحدة نفسها وبالعكس يمكن ان تتنقل هذا الخطابات بين استراتيجيات متناقضة دون ان يتبدل شكلها "ويحيلنا هذا القول الى ان الخطاب تتنوع أشكاله وتختلف تجلياته. إذ تتلاقح الخطابات فيما بينها وفي بعض الأحيان تنصهر لتشكل سلسلة متصلة تفرض نفسها كلحمة واحدة، وبهذا يغوص الخطاب في اطار النظرة الشمولية عميقا حيث يمارس ثنائية التجلي والخفاء ، الحضور والغياب، ويتموقع في التركيبة العامة من خلال اللغة التي تؤسس لمفهوم الاختراق الدائم وبذلك يمتد تحليل الخطاب من الآفاق اللسانية والتداولية إلى ميادين واسعة، ترتبط بالأنظمة الثقافية، التي تنتج المعرفة وتوجهها، وتقنن تداول مكوناتها، وتبسط هيمنتها ومفاهيمها.

فالعلاقة التخاطبية بين الخطيب والمخاطب تعتمد الحجج والبراهين قصد ممارسة الاقناع بين متكلم ومستمع له حق الاعتراض، ولذلك يصور طه عبد الرحمان الحجاج المبني على المحاورة الناطقة والصامته" كل منطوق به موجه الى الغير لافهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها"7ويتوسع طه عبد الرحمان في مفهوم الحجاج في كتابه" في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" وذلك من خلال مقارنته بالبرهان حيث ميّز بين صفتين رئيسيتن للحجاج" فهو تداولي ؛لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال من معارف مشتركة ومطالب إخبارية وتوجهات ظرفية، ويهدف إلى الاشتراك جماعيا في إنشاء معرفة عملية إنشاء موجها بقدر الحاجة، وهو أيضا جدلي؛ لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"8.

إنّ البحث في موقع المستمع داخل المجال التداولي يلغي تقريبا الطرائق المعيارية وينتج طرائق متنوعة تتلاءم مع الوضع التخاطبي أو التواصل المطلوب في عملية التأثير والإقناع بالإضافة إلى الشروط والاقتضاءات المجالَية 9 ، ذلك

لأنّ الفعل التأثيري يستوجب منذ البداية الاهتمام بالمستمع والبحث فيه 10 ،فالخطيب قبل ان يؤثر لا بد ان يتأثر هو بالأساس وخاصة إذا كان من أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي الذي ظلَ يحمل في قلبه قضايا امته الساخنة ويعيش بداخله الأهداف العلّيا للوطن، وينافح عن الفكرة والمشروع في ظل المرجعية الإسلامية المتجذرة في عمق الشعب الجزائري حتى يكون تأثيره عميقاً وفعالاً؛ لأنّ آلية الاستقبال تشتمل التلقي وتركيب المعنى في علاقة بين إنتاج القول والاستقبال كعلاقة تأثير متبادل لها طابع جدليَ، فالخطيب يأخذ بعين الاعتبار المستمعين بمختلف أطيافهم ومشاربهم ومستويات عقولهم ويتخير لهم نوعية التأثير الملائمة، وهذا ما يسمى اليوم في ظل نظرية تحليل الخطاب استراتيجية الخطاب التي تنبني على الانّفعال، والإدراك والفهم والتأثير والذاكرة. من خلال الإلقاء الجيد لأنّ القول الحسن يزيد الحق وضوحا والنبر والتنغيم والحركات المصاحبة للأداء، فعملية التلقي أو التأويل تشكل ما يطلق عليه اليوم القراءة فإذا كان الخطيب مبدع أولا. فإنّ المستمع مبدعا ثانيا.

وقد شهدت الخطابة على عهده إزدهاراً كبيراً بفضل ما تميز به فصاحة لسان وعرض بيان، وسرعة بديهة ، وقوة حافظة. وهي في ذلك كله تستمد أصالتها من العصور الذهبية لهذا الفن. ولعلّ اهتمام الإبراهيمي بالخطابة وكلفه بها كان نتيجة لشعوره بأهميتها في تلبية حاجة الجمعية لطرح أفكارها وعرض فلسفتها. ولما كانت الخطابة ذات أهمية بالغة، ومنزلة عالية عند الأمم، فإنّ الإبراهيمي قارنها بالتمثيل عند الأمم حين قال:« التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان. وأنّ منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وأنّ مكانتها من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقومات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلاّ والتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأول.»

لقد شُغف الإبراهيمي بالخطابة وأجاد أساليب التعبير فيها، وتوسلها لنشر دعوته بين الجماهير وهو يتنقل في ربوع كثيرة، وخطب في مناسبات متعددة داخل الوطن وخارجه، غير أنّ هذه الخطب لم تجمع، فقد ضاع معظمها ولم يبقى منها الاّ القليل ويفسر محمد عباس هذه الظاهرة بقوله: «والمؤكد أنّ الميزة الغالبة على هذه الخطب هي الارتجال، لأنّ صاحبها ظلّ صِنْوَ أسفار، وكانت ظروف السفر والترحال تحول بينه وبين تحضير هذه الخطب، علاوة على قدرة الإبراهيمي اللامتناهية في الارتجال والخبرة الفائقة في إدارة الكلمة... فتعددت خطبه بتعدد المناسبات، ولعلّ هذا هو السبب المباشر، أن ضاعت في ذلك خطب لا تحصى إلى جانب محاضرات ودروس متنوعة لاتعدّ، كان لها ثقلها في الميدان الأدبي الثقافي». **11**.مما جعل الإبراهيمي خطيباً من الدرجة الأولى، يتبوّأ في هذا الميدان مكانة مرموقةً جعلته « ينتمي إلى مدرسة البلغاء العرب و كُتّابهم و خطبائهم المشهورين بالقدرة على توليد المعاني و الاحتفال الذي يأتي عفو الخاطرة، أو يقصد لذّاته أحياناً »12 .

ويتفق جميع الدّارسين على أنّ الإبراهيمي كان يمتلك قدرات خطابية لا تُجارى و مهارات بيانية لا تُبارى، فقد «كان رحمه الله إماماً في العربية و بلاغتها، تفقه في أسرارها و تغذّى بأدبها و استنار بقرآنها، و كان خطيباً مِصقاعاً يهزّ القلوب ببيان ساحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان، في عهد قس بن ساعدة

وسُحبان»13، و يقول عنه عبد المالك مرتاض مُعجباً بزعامته في فنّ الخطابة : « إنّ هذا الخطيب كان شديد العارضة، فصيحاً، لَسناً، ساعده على ذلك محصول من اللّغة وفير، و إلمام بالأمثال و براعة في حسن إجرائها في مضاربها، ومعرفة عميقة بطرائق الكلام، وقدرة على التصرّف فيه »14فلقد جمع الإبراهيمي بين ثقافة الخطابة وصفات الخطيب و لم تكن الخطابة عنده غاية تُقصَد لذاتها بغرض المتعة الفنّية فحسب، و إنّما كانت كذلك أداة يبثّ من خلالها فكرة الإصلاح في عقول السامعين و يستميلهم بها فهي و سيلة وغاية، وهو أديب مُصلح وعالم أديب.

وكان الشيخ «البشير الإبراهيمي » واحدًا من دعاة الإسلام العِظام، ومن كبار رجال الإصلاح، اجتمع له ما لم يجتمع إلا لقليل من النابهين؛ فهو مؤمن صادق الإيمان، مجاهد في ميدان الدعوة، ملكَ الإسلام حياته؛ فعاش له، ونذر حياته كلها لخدمته، وسخر قلمه وفكره في بيان مقاصده وجلاء أهـــدافه، وشرْح مبادئه، والذوْد عن حماه، والدفاع عنه ضد خصومه، لم يدع وسيلة تمكنه من بلوغ هدفه إلا سلكها؛ فاستعان بالكتاب والصحيفة والإذاعة والتلفاز في تبليغ ما يريد رزقه الله فكرًا عميقًا، وثقافة إسلامية واسعة، ومعرفة رحيبة بالإسلام؛ فأثمر ذلك خطباً ومقالات عدة في ميدان الفكر الإسلامي، تُحيي أمة، وتُصـــــــلح جيلاً، وتفتح طريقًا، وتربي شبابًا، وتبني عقولاً، وترقِّي فكرًا.

وهو حين يكتب أديب مطبوع، ولو انقطع إلى الأدب لبلغ أرفع منازله، ولكان أديبًا من طراز حجة الأدب ونابغة الإسلام «مصطفى صادق الرافعي»، لكنه اختار طريق الدعوة؛ فكان أديبها النابغ ووهبه الله فصاحة وبيانًا، يجذب من يجلس إليه، ويأخذ بمجامع القلوب فتهوي إليه، مشدودة بصدق اللهجة، وروعة الإيمان، ووضوح الأفكار، وجلال ما يعرض من قضايا الإسلام؛ فكانت خُطبه ودروسه ملتقىً للفكر ومدرسة للدعوة في أي مكـــان حلَّ به، و«الإبراهيمي » يملك مشاعر مستمِعِه حين يكون خطيبًا، ويوجِّه عقـــله حين يكون كاتبًا؛ فهو يخطب كما يكتب عذوبة ورشاقة، وخُطَبه قِطعٌ من روائع الأدب .والغزالي وتخصّص الإبراهيميُّ بنَشْرِ الدّعوة في أوساط الجماهير؛ لأنّه كان أَقْدَرَ على إقناعهم، وكانوا أكثرَ اتّصالاً به، لأسبابٍ اجتماعيّة خاصة، وهو أَقْدَرُ النّاس على هذا الميدان. دام الحال على هذا في التّهيئة والإعداد، دروسًا عامّة ومحاضرات واغتنام الفرص في كلّ اجتماع لبثّ الدّعوة، والتّشنيع على الضّالّين بجميع الوسائل، والفصل بينهم وبين الطّرقيّة الّتي غَشيهم ظلامُها ،وضلالها قرونًا، وكان الشيخ الإبراهيمي أَوْثَقُ الجماعة صلةً بالجماهير الّذين هم موضوعُ الدّعوة، وكان يتعاطى سببًا يقوم بضروريّات أسرته، كالتجارة والفلاحة، ويُنفق كلّ وقته في التّنقّل إلى المراكز المختلفة في المدن العامرة والقرى محاضرًا داعيًا مُذَكِّرًا، مِن غيرِ أن يَقطع الدّروس المنظّمة في بلده للشّبّان والكهول والشّيوخ.

وهو رجل إصلاح، عالم بأدواء المجتمع الإسلامي في شتَّى ربوعه، أوْقف حياته على كشف العلل، ومحاربة البدع وأوجه الفساد في لغة واضحة لا غموض فيها ولا التواء، يجهر بما يعتقد أنه صواب دون أن يلتفت إلى سخط الحكام أو غضب المحكومين، يحرّكه إيمان راسخ وشجاعة مطبوعة، ونفس مؤمنة."أنّ هذه الفَترةَ من حياة الإبراهيميِّ

اتّسمتْ بثراءٍ أدبيٍّ رائعٍ شِعراً ونَثراً وخَطابةً ورسائلَ ومُحاوراتٍ ومُحاضراتٍ، دوَّتْ آثارُها وظهرتْ ثمارُها في تلك المكانةِ السامقةِ الباسقةِ التي تَبوّأَها الإبراهيميُّ في تلك الفَترة، فقد اعترَفَ له بالإمامة في اللّغة وفنونِها مَنْ يُشهَد لهم بالرُّسوخِ في هذه المعارفِ، ونُزِّلَ مِن قلوبِ الناسِ في المشرق . حُكاماً وأدباءَ . مَنزلةً لم يَحْظَ بها أحدٌ من أهلِ المغرب في زمانه، وتبوّأَ عرشَ المجامع اللّغويةِ والشرعيةِ في عواصم الثقافة الإسلاميةِ والعربيةِ في تلك الأيام: القاهرةِ ودمشقَ.

لقد كان أمضَى سلاحٍ استخدَمه الإبراهيميُّ في تلك الفَترة هو تلك البياناتُ التي كان يُصدرُها والكلماتُ التي كان يُذيعُها والمحاضراتُ التي كان يُلقيها والخطبُ التي كان يُدبّجُها، بأسلوبٍ يَفيضُ بلاغةً ويَتألّقُ رَصانةً، ذكّرتْ الناسَ بالأدباءِ العمالقةِ السابقينَ والبُلغاءِ الفُحولِ السالفينَ، وقد كان لهذا السلاحِ أثرُه الكبيرُ على فرنسا سَلباً، وعلى قلوب الثوار في الجزائر إيجاباً، فوحدَّ الشعبَ الجزائريَّ وراءَ ثورةِ التحرير، وفتحَ قلوبَ المسلمين وعقولَهم في المشرق وغيرِه على ضَرورةِ القيامِ بواجبِ النُّصرةِ والعونِ لإخوانِهم في الجزائر. إنّ المتتبِّعَ للإنتاج الذي كان الإبراهيمي يُتْحِفُ به قُرّاءَه نَثراً ومُحاضراتٍ وخُطَباً وشِعراً يَستطيعُ أن يَتبيَّنَ الموضوعاتِ التي كان الإبراهيميُّ يثيرُها ويُرصّعُ معانيَها بقلمِه الرائعِ، لكنّها . أي هذه الموضوعاتُ . تكادُ تتمحورُ كلُّها حولَ الجزائر وإثباتِ عُروبتِها وإسلامِها وانتمائِها الحضاريِّ والتاريخيِّ إلى جِسمِ الأمّةِ العربية والإسلاميةِ، ثمّ النِّداءِ الصادقِ إلى إخوان الجزائر في المشرق للقيام بواجبهم في دعم ثورةِ التحرير التي شبَّ أُوارُها واضطرمتْ على العدوِّ نارُها.

وجدنا "البشير الإبراهيمي" يقدم كلمته على النحو التالي في خطبه حين يلتزم الرؤية الحجاجية التي قررها في القراءة والدرس، بوعي جديد للتاريخ فيتوسل المنهج نفسه في قراءة نص الخطبة لاستنباط الأحكام التي أسست للنّص وأخرجته على هذه الهيئة دون غيرها من الهيئات والتي تحدد فهمنا وتبني تصورنا وتعطيه الابعاد المختلفة في إطار فلسفة الموقف المبني على أسس حجاجية تراعي استدعاء التاريخ المؤلم لمسجد كيتشاوة وقداسة المسجد المسترجع وزمن يوم الجمعة ولذة الانتصار "طريقة توجيه إدراكنا نحو العالم وأحداثه، ذلك أنّ الكيفيات التي ندرك بها الأحداث والأشياء هي التي تحدّد فهمنا لها، وتبني تصوراتنا، وتعطيها أبعادها المختلفة. بيد أنّ هذه الكيفيات لا تنطلق ابتداء نحو العالم، وإنّما تسيّرها، وتوجّهها الأغراض الوقتية، والمطالب الحياتية . فهي – بذلك– تحدّد كيفية إدراك العالم."15 وحين نستعيد الموقف الذي اكتنف "نص الخطبة الأولى" نجد أنفسنا أمام حشود جزائرية اكتوت بنار الاستعمار امتلأ بها مسجد كتشاوة وباحته، وضاقت بها ساحته، وغصت بها الشوارع المحيطة به. وشهد الخطبة الرجال والنساء والأطفال، وحضرها المجاهدون والسياسيون، ومختلف طبقات الشعب المثقفة. إنها اللحظة التي توقف فيها التاريخ يسجل"بيان المسجد" في أول جمعة من أيام الاستقلال. والخطيب الذي سيعلو درجات المنبر و هو يعرف دوره ومكانته ويحسن استغلاله والاستفادة منه في التوجيه بالحضور العلمي الثقافي والحجة المبنية على أسس صحيحة، حتى يكون لها عظيم الأثر في الأمة لما يمثله من مهابة ومكانة في حس كثير من المسلمين فالإبراهيمي على ما أوتى من علم غزير وهو الإمام المصلح و الأديب البارع و الخطيب المفوه و المجاهد المخلص ليدرك أن عليه تلبية طموح السامعين، وتلبية أشواق المنتظرين؛ لتجدّ كلّ المستويات على اختلاف مشاربها مرغوبها يتحين الفرصة

بالبناء الحجاجي وأداة البيان ليطرق القلوب برفق . والإبراهيمي ذا الثقافة العميقة والذكاء الحاد والنزاهة الخالصة يتفنن في حسن الاستهلال وحسن التخلّص يعرف كيف ينظم حبات العقد يمارس العدول التداولي على ما سار عليه بعض الخطباء وهم يتخيرون لخطبهم فاتحة مثقلة بالأسجاع من ذلك الزمن البعيد ، وتدور معانيها في فلك لا صلة له البتة بموضوع المتن يغبطه هدير اللّغة وهو يستعرض المهجور من ألفاظها ، "ويُعجب لضجيجها، ويحسب أنه يحسن صنعا، وقد انساق وراء إلف العادة في ترصيع الفاتحة بالمترادفات والمتضادات من الألفاظ، ولم يفكر قط في أن الفاتحة إنّما هي المقدمة التي تنم عما سيتلوها من مضامين، وما سيلحقها من أفكار."16 فهي تواصل إلى إفهام المعاني المقصودة إلى قلوب السَّامعين، بأحسن صورة من الألْفاظ الدالَّة عليْها، وأفصحها وأجلّها لدى الأسماع، وأوْقعها في القلوب تربط بين القيمة الفنية و صدى الفكرة المؤثرة عل المتلقي ملبية لأشواق العقل بالمعرفة ، ولأشواق الروح بالتزكية ،ولأشواق الفنّ الملتزم بالقيّم إفادة المتلقي ولفت انتباهه وكسب عطفه أي استمالته.

يقول الجاحظ :" ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وحالاتهم، فيجعل لكل طبقة منهم كلاماً يخصهم به حتى يقسم بالتساوي أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم المعاني على أقدار المقامات التي هم عليها المستمعون وحالاتهم"17 وينبغي أن يكون الافتتاح مرتبطاً مع الخطبة ببراعة الاستهلال؛ فإنّ براعة الاستهلال من أخصّ أسباب النجاح في الخطبة "،فالمتكلم يبدأ كلامه بما يشد انتباه من يكلمه ، فيتخير من اللفظ ما يناسب مستمعه ، ،فخطبه ابتكر فيها وجدّد للأمة أمر دينها بعد أن غشيتها عوادي الزمان بالعودة الى المنابعه الصافية ، بعيداً عن زيف التاريخ ، و أهواء البدع. فجاءت بمضمونها وأسلوبها لونا أدبيا متطورا خرج بهذا الفن عن الطابع التقليدي الجامد على الموجود ، بما تناوله من موضوعات حيّة وقضايا معاصرة جمع فيها بين المعطيات الدينية ومقتضيات التوعية بها وبين حقائق الواقع المعيش بظروفه ومعاناته وكذا بين التطلع لآفاق المستقبل وهو الذي دخل معترك الجهاد مبكراً في فترة من أحرج فترات التاريخ الجزائري

فقد وظف الإبراهيمي موهبته الأدبية الفذة وبيانه العالي وقلمه السيّال وخطبه الهادفة في مواجهة ظلم الاستدمار الفرنسي وفضح جرائمه ونقض شبهاته والتشهير بمظالمه وظل طوال عقود غُصّة في حلق الاحتلال لا تلين له قناة ولا يكل له جهد مما سبب له إحراجا بالمراقبة والسجن والنفي ،فالإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان قلما يجود بها في عصرنا الحاضر لخبرته وذكائه وتجرعه لمرارة الاحتلال فجائت خطبته بمسجد كتشاوة معبرةً عن فرحة التخلّص من الاستعمار ،منتشيةً بفرحة الاستقلال ،وهو يُهندس لفلسفة الدولة بالحجاج من خلال الموقف الذي يستهدف بالدرجة الاولى المعتقد الذي يشكل رهانا صعباً في كلّ حجاج لارتباطها بالقيّم والأخلاق المتعارف عليها والتي لا تخضع للتحليل العلمي ، بل تقوم على الأنساق الفكرية وتمتزج فيه الأقوال بالأفعال والمبادئ بالمسلمات ؛ لتحصيل العملية التواصلية يلعب فيها الحجاج دوراً مركزياً ،يستهدف قبض القلب وعزمه . وقد امتزج الخطاب في مجمله بالأمور التي تسكن إليها النفوس يقيناً جازماً لا يخالطه شكّ ولا يخالجه ارتياب من خلالها حدد

الابراهيمي في خطبه الاشكال المطروح ،ثمّ عمد وهو يبحث عن الأدوات والوسائل المقنعة ، وقد استهل الابراهيمي خطبه بحمد الله وتمجيده والثناء عليه ، فالخطب التي لا تُبْتدأ، بالتحميد، وتُستفتح بالتمجيد تسمى(بالبتراء). ويُسَمُّون التي لم توشّح بالقرآن، وتُزَيَّن بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم (بالشوهاء) والافتتاح بالحمد والصلاة على رسول الله –صلى الله عليه و سلم– يكون فاعلا في موضوعه ذات صلة بالعرض يقول الجاحظ " فإنّه لا خير في كلامْ لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مَغْزَاك، وإلى العمود الذي إليه قصدت، والغرض الذي إليه نَزَعت."18.

فالإبراهيمي يربط بين القراءة التي مصدرها الكون المنظور والوحي المسطور وأدواتها الحسّ والعقل وما ينبني عنها من عمل" أتمثله حلِفَ عمل، لا حليف بطالة، وحلس معمل، لا حلس مقهى، وبطل أعمال، لا ماضغَ أقوال، ومرتاد حقيقة، لا رائد خيال."19. فالفعل القرائي ليس لذاته وليس من أجل التسلية أو لتمضية الوقت ، بل هي فعل حضاري ينصرف إلى التخطيط استنادا إلى اتجاه الأمة، ودرجة استعدادها لتحقيق المطامح والرؤى المستقبلية فكراً وهويةً وانتماءً بالعمران الرشيد في المكان، وبالفعل الثقافي المنجز في الزمان وإننا حين نقرأ للشيخ البشير الإبراهيمي قوله:" من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما يدرس الحقائق العلمية. فإذا استقام له ذلك، استقام له العمل وأمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له. فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حظه الفشل"20،هذه الحقيقة الحضارية التي يطل علينا بها "البشير الإبراهيمي" تجعلنا نراجع مفاهيمنا حول المنهج والنص ،ومستخلص القراءة والدرس ،وههنا سؤال يُطرح حول رؤية الإبراهيمي للحراك التاريخي، ومهمة المؤرخ والمفكر التى تتجاوز ما خطته الأيدي لتسجيل الأحداث والحوادث إلى ما سطرته الأيام من مصائر الشعوب والأقوام. ذلك هو الكتاب الذي سيظل مفتوحا للقراءة والدرس ،في استجلاء العبر والعظات على صفحات الواقع المشهود كمنبهات ومحفزات ومنشطات وهي النظرة التي تتخطى الأحداث التي طواها الزمن وهو المنهج الذي يمضي فيه المؤرخ:" مهمته أن يرسم لوحة بمعرفتنا عن تسلسل الأشياء البشرية في مجرى الزمن، وإذا كان لا بد في سياق عمله أن يتخطى التفاصيل، وأن يحاول الأخذ بنظرة مجملة النتائج الحاصلة، فإن هذا لا يكون إلا برصانة فائقة".21

وإذا عدنا إلى "البشير الإبراهيمي" لنقرأ مجددا فهمه للتاريخ من أنه قراءة لواقع الأمة ودراسة للمقدور والممكن والمستطاع الذي يحقق وثبة الاصلاح، رأينا فيه فهم أهل الاختصاص الذين يرون أن "قيمة التاريخ" تتجلى فيما يُقدم من معرفة عميقة يصلح بها الرأي، لا فيما يُسجل من أخبار وروايات ساكنة لا حراك فيها، تلك نظرة جعلت "أبا القاسم سعد الله" يقول عن "البشير الإبراهيمي":" وقد تناوله الباحثون في مقالاتهم وفي رسائلهم الجامعية على أنه أديب ولغوي, وأنه فقيه ومصلح, كما درس آخرون مواقفه من القضايا العربية والإسلامية كقضية فلسطين وباكستان وليبيا ومصر واليمن.. ولكننا لا نعرف أن هناك من درسه كعالم بالتاريخ وأحوال الأمم الغابرة والمعاصرة, وأن له رأيا في كتابة التاريخ لم يأت ربما على قلم أو لسان جيله من الأدباء والمصلحين"22"،حين نلتزم

الرؤية التي قررها "البشير الإبراهيمي" في القراءة والدرس، يغرينا هذا الوعي الجديد بالتاريخ أن نتوسل المنهج نفسه في قراءة نص الخطبة، لا لنقول عنها قول المؤرخ الذي يسجل الأحداث، وإنما قول الدارس الذي يريد استنباط الأحكام التي أسست النص، وأخرجته على هذه الهيئة دون غيرها من الهيئات. وهي مهمة ترتكز أولا على ما يمكن تسميته ب"فلسفة المواقف""23 وهي طريقة توجه إدراكنا وتصورتنا نحو لحظة توقف التاريخ وهو يحصي الأفعال وفهمنا لها تحدده الكيفيات التي تبني تصورتنا في بعدها المقاصدي الموصول بحركة الزمان في المكان والحضور؛ ليصبح طاقة مفعّلة للتاريخ وأنّ صناعة التاريخ بطولة صنعه الأماجد الشجعان الفرسان الآباة، وأن صوت الإبراهيمي الجهوري أوصل الأمة الجزائرية من خلال الخلفية التاريخية التي نشأ فيها ونما ،وهي سرّ هذه السّعة ،وهذا الامتداد عندما نتحسس الخلفية والمنطلق أنّ التاريخ هو أحد المحركات بالدين يزلزل السواكن ويصنع الأشواط ،فقراءة التاريخ باعتباره فقهاً مدنياً يُعبئ الأمة بالوعي وهو مخالف لنظرة فرانسيس فوكوياما **Francis Fukuyama**الذي يزعم أنّ التاريخ قد انتهى بزوال الأخر ،وهي نظرة تغالبية تلغي الكسب الإنساني.

لكن الشيخ الإبراهيمي ينظر للتاريخ بمنظار القرآن الكريم الذي يؤكد على أنّ التعارف من خلال تبادل المعارف {**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**} –الحجرات الآية –، 13 وأنّ التحّول من مرحلة التنبيه والوعظ والإرشاد التي رصفت عندها جهود المصلحين في الانتقال إلى محطة التخليق والصناعة وهذا شوط قد جعل سقف العمل الإصلاحي سقفا مرفوعا بالجهود الجماعية الموتشب بالرّوح القرآنية وهو منهج دعوي جبار يستمد أصوله من البعثة النبوية يخلخل النظرة التغريبة المادية للتاريخ. التي تعتبر "مسجد كتشاوة" الذي تحول بفعل الاستعمار البربري من مسجد إلى كنيسة سالت فيه دماء جزائرية غزيرة أثناء اغتصابه وحين نستعيد الموقف الذي اكتنف "نص الخطبة " وهي تُلقى أمام حشود امتلأ بها المسجد وساحته، وغصت الشوارع المحيطة به بالرجال والنساء والأطفال ، وحضر الجمع مختلف الرتب والمقامات العلمية والفكرية والثقافية والسياسية، جاءت لتستمع إلى "بيان المسجد" الذي يؤسس من خلال البعد الروحي إلى مقومات الدولة الجزائرية النوفمبرية في أول جمعة من أيام الاستقلال.

والخطيب الذي سيعلو درجات المنبر يدرك أن عليه تلبية مطامح كل سامع، وتزكية رغبات كل منتظر.. عليه أن يجعل من كلامه فضاء يجد كل واحد منهم فسحته فيه. فجمال الشكل والمضمون وحسن العرض يحقق جذب الناس إلى الحق واقتناعهم به، إذا كان "الموقف" المهيب يمُلي على الخطيب المفوه مراعاة اللّحظة المقدسة زماناً ومكاناً التي يتوجه فيها إلى جمهور قلوبهم ترقص طرباً بنشوة النصر على الاستعمار الذي جثم على صدر الجزائر طيلة 132سنة، واعياً بتركيبته البشرية، مدركا مستوياته المعرفية، فإنه –استجابة لهذا الوضع الخاص– يملي عليه الطرائق البانية للكلام بناءً فضائياً ؛ لتحقيق المقاصد والأهداف التي تجمع بين التأثير والتغيير.. وكأن الخطيب حينما يستجيب للموقف، يهندس كلامه على نحو يتأكد من خلاله فصل الخطاب الكامل للرسالة، من غير لبس ولا غموض، ولا تفسير ولا تأويل مفتوح ودونما أن تجد اعتراضاً كبيرا عند بعضهم. لذلك وجدنا "البشير الإبراهيمي"

يقدم كلمته على النحو التالي: متدرجاً من اليقين المطلق الراسخ الذي لا يخالطه شكٌّ ولا ارتياب في رحاب العقيدة التي استيقنتها نفوس الحاضرين ،ومادتها تدلّ على اللّزوم والتأكد والاتفاق ويقبض عليها القلب بعزمه، فهي تمثل الامور التي تسكن إليها النفوس ،وتطمئن إليها القلوب يقيناً جازماً، وهي أساس كل شيء مقدمة على ما سواها، وهي شرط في صحة الإسلام وقَبول العمل ، وأنّ دقّة التصميم ونجاعته تستلزم التدرج المطلق الثابت الذي يستمد أصوله من السنن الكونية الثابتة التي تحقق الاجماع التي تتدرج بالمتلقي بقبول فحوى الخطاب فيتحقق التأثير المقترن بالتغيير في بناء الحاضر والمستقبل.

جعل الإبراهيمي العقول التي يتوجه إليها تنخرط في الأطروحة أو الدعوى. من أجل الإقناع والوصول إلى بعقل المخاطب وشعوره فيما يفكر في قضايا العقيدة والحياة ،وقد حرص على مراعاة "شروط التلقي ودرجات الاعتقاد ومدارك المتلقين و أوضاعهم الزمنية و المكانية استجابة لدواعي الإقناع ومسلكيات التخاطب وأنماطه السلوكية وبنياته البيانية وأسسه المنطقية وسلمية الاستدلالات العقلية وحركية الأفعال الحجاجية "**24** قد تجري سنة من سنن الله بسبب من أسبابه المباشرة ، لندفع أقدار ضعف الهمّة بعلُّوها واستنهاضها ،ومن أقدار الهزيمة الى أقدار النصر التي ربطها الابراهيمي بالقوة "قائلا:" سبحانه تعالى جعل السيف فرقانا بين الحق والباطل، وأنتج من المتضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف، وولد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقا إلى الحياة" وهي قاعدة يقينية استراتيجية في الانطلاق من اليقين الراسخ القائم على سنة التدافع والتضاد مصداقا لقوله تعالى: {**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**}(سورة الحج الآية40) .وهي قضية حجاجية فكرية تنتقل من الاطروحة إلى نقيضها في إدارة الصراع تأخذ بقوة المنطق وسلامة اللغة، بين الحق والباطل ،بين الخير والشر ،بين القوة والضعف، بين الحرية والعبودية ،بين الموت والحياة ، فهي مقدمات: تمثل معطيات الحجاج، وهي ما اشتمل على مسلمات وبديهيات يؤسس المتكلم على منوالها استراتيجيته الحجاجية، ويربطها ربطاً منطقياً تهيئ المخاطب لممارسة آلية الاستنباط ، فالحجاج اللّغوي يرتكز على الضدّ يُعرف بالضدّ ،أمّا الحجاج البلاغي فيعتمد التضاد الذي يبرز المعنى ويوضحه من خلال : الأطروحة + مقدمة ـــ الحجج ـــ نقيض الأطروحة ـــ النتيجة

الشيخ الإبراهيمي من خلال هذا التضاد الذي يكشف مقدرته ودقته في اختيار معجمه اللّغوي دونما تكلف ولا تصنع، فجاءت ثنائياته متقابلة على وجه التضاد مرنة غير متنافرة بحيث تدخل في علاقات تشارك وتجاذب وتقاطع معبرة عن تجربة شعورية انسجمت وتلأمت مع الحضور الذي ذاق وإياه مرارة الاحتلال في سياق خطاب وطني ذائب في المسحة الدينية تتواتر خلاله الدلالات بالمعاني في تقابلات ثنائية متضادة تخدم القضية المركزية تنساق في النهاية إلى غاية واحدة ، ما كان ليحصل لولا هذا التضاد المتدفق جراء المكابدة والكبد والضيم التي تعرض لها ،وما كان أثرها ليرسخ في ذهن المتلقي لولا قدرة الابراهيمي الفنية التي جمعت بين الانسياب والإيقاع فتولد ذلك

الانتقال السلس من الضدّ إلى الضدّ بإيقاع متناهي مضبوط تستجيب فيها الخطبة لهذا التوتر والتعاقب بين الأضداد جعلت الجمهور المتعطش يتتبع الخيط الناظم للانفجار الدلالي والإيقاعي في خطبة الجمعة بحثاً عما يلبي الأشواق الروحية والعلمية والفطرية المركوز فيها حبّ الوطن في دم الأحرار، وهنا تكمن قدرة الخطيب وإبداعه المتميز في هندسة الخطاب وبنائه بناءً فضائياً أدت إلى جودة التعبير حتى لكأن "اللّفظ يسابق المعنى والمعنى يسابق اللّفظ"25وهو الذي جسّد التأثيرية والفاعلية في الخطبة معتمداً مبدأ الإقناع ممثلاً في " بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب"26 استراتيجية إقناع تعتمد على التأثير القوي في المرسل إليه قصد إثبات نتائج أكثر، فمثل هذه الحجج لا تُفرض بالقوة ويُستخدم فيها العنف اللّفظي، فالخطيب "عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته ، فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تندرج على منهج القمع إنما تتبع في تحصيل غرضها سبلاً ، استدلالية متنوعة ، تجر الغير جراً إلى الاقتناع برأي المحاور . وقد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الامتاع من قوة في استحضار الأشياء ، ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين"27 من خلال إلمام الخطيب بشروط الحجاج القائم على المحاورة ومراعاة طبيعة المخاطب، "فالحجاج في النهاية ليس سوى دراسة لطبيعة العقول ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها ثم محاولة حيازة انسجامها الإيجابي والتحامها مع الطرح المقدّم، ، أما إذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان ، فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير"28

واختيارات الابراهيمي الإنتاجية للخطاب نابعة أساساً من الوجود المتقابل، والمعاني المتقابلة، ثم من العلاقات المتقابلة بين المعاني، وتبعاً لذلك المنطق يحدث الحجاج من خلال عمليتي البناء والهدم في التركّيز على جانب التقابل والتبادل الخطابي بين المتخاطبين وترتبط العملية التواصلية عند " طه عبد الرحمان " بالجانب العقلاني من الإنسان بسبب ارتباط العقل بالمعاني المجردة. ولأن العقل هو القدرة على انتزاع المعاني الكلية من الموجودات المشخصة"29 كيف أنّ العبارة المتلّفظ بها ترتبط بفعل النصر وهـو مقدم بفعل الابتلاء ليخلص الخطيب إلى النتيجة الإخبارية إلى العلم الذي يجري مجرى الاختبار والصقل والتمايز. قال الله تعالى:**{ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ }** ( سورة آل عمران الآية -142)وقال أيضاً في المعرض نفسه **{الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}** ( سورة العنكبوت الآية 1،2)

أمام جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة في كلمة جسدت معنى ما أخذ بالقوة لا يُسترد الا بالقوة "إنّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر هو الذي نوّع أسباب الثورة عليه، وكل سبب منها يقضي بثورة مجنونة ، فكيف بها حين تجتمع ؟ فلو أن أهل الجزائر ثاروا كلهم ثورة رجل واحد ، وثأروا لقتلى تلك المذابح التي سمعتم إجمالها بقتل أمثالهم من الأوروبيين لما بلغوا إلى ما تقربه العين من الثأر المنيم. ليذكر الحاضرين كيف استردت الأمة الجزائرية حقّها المغتصب في صراعها مع الاستدمار ولم يكن ذلك منّةً منةً ولا تفضلاً بل" إنّ الجزائر ثارت على الحق في أولها فكيف لا تثور

على الباطل في آخرها ثارت على الإسلام وهو دين الحق ، فمن عجب أن لا تثور على الاستعمار وهو الدين الباطل"30 "... كيف لم تثر الأمة الجزائرية من زمان على هذا الظلم الذي أريناكم لمحات من وصفه ؟ فجوابها عند قرن وربع قرن، سنوات وعقوداً ، فهي تشهد أن الجزائر أم الثورة وأنها قدمت من الضحايا في سبيل استقلالها وحريتها ما لم يقدمه شعب آخر"31 " الجزائر ثائرة بالمعنى الأول على الاستعمار الفرنسي الذي جثم عليها قرناً وربع قرن وسامها سوء العذاب ورماها بالمخزيات الثلاث : الجهل والفقر والمرض ، واستأثر بخيراتها الوفيرة وقضى بأساليب يعجز عنها الشيطان على كل أسباب القوة فيها"،32 ،فالاستراتيجية الخطابية تقوم على توليد النّص من خلال التضاد المتناص الذي يؤدي إلى التكوثر العقلي من خلال العملية التواصلية في المقام والسياق المتعدد الذي يتغيا المنهج التداولي المبني على الحجاج وفلسفة الموقف "فالخطاب الحجاجي هو خطاب موجه، وكلّ خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بُعد حجاجي"33

وأنتج الابراهيمي من المتضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف وولد الحرية من العبودية وجعل الموت طريقا إلى الحياة، وما أعذب إذا كان للحياة طريقا ،بناء الحجاج يقوم على اليقين المتفائل والمتداول بين القوة التي تخرج من الضعف، والحرية التي تولد من رحم العبودية ،والموت التي تُعبّد طريق الحياة ولا يُستعذب الأمر الآ اذا عبرنا إليه على جسر المشقة والتعب ،فالبدايات المحرقة نهايتها مشرقة ولن يتم ذلك في نظر الابراهيمي إلاّ إذا تحررت نفسية الشعب من الخنوع للمستعمر، ومن التبعية لثقافته، ومن اليأس من مقاومته ،"ويظهر الإبراهيمي –في حقيقة ناصعة أديبا ذابا عن حوض أمته يخدم استجابتها و مآربها ومتطلّبتها بتفاعل مستمر، ويظهر أيضا أسيراً لدواعي الإحساس بالمسؤولية تجاه الكلمة الثّورية والانفعال بها، ملتمسا لأسباب الثّورة وإرهاصاتها، و أصبحت هذه الدواعي و الأسباب قضاءً و قدراً عليه وحتما محتوما..."34

ويحاول الابراهيمي من خلال هذه المتضادات والمتعارضات أن يتغلب على الإحساس الخانق بتشكيل مجموعة من الصور مفعمة ببلاغة الحياة المعتقة فيشحذ جميع أسلحته الفنية ويستثمر خبرته الجمالية من أجل القبض على المعنى الباعث على المقاومة والاستماتة في الدفاع عن الوطن ،فالخطيب مسكون بهاجس الرغبة في مواجهة الاستعمار والانتصار عليه، فهو حين يقتبس اللّفظة أو العبارة "ينزلها المنزلة الحسنة اللاّئقة بها و يصيرها ملكاً له في تركيب جميل، و يبقى بذلك أسلوبه قويا متينا مبنيا لا يساوره ضعف ولا ارتخاء ولا فتور و لا نحول"، فخطبه ومقالاته مكتظة بالألفاظ المقتبسة من القرآن و قد كان اقتباسه من القرآن الكريم يضفي على أسلوبه مسحةً جمالية وقوة حجاجية لاسيما و أنه كان يحسن توظيف تلك الاقتباسات في قوله تعالى:**{ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ }** (سورة الروم الآية 19)

"فقد جمع الإبراهيمي بين المعاني و الجمال، بين التعبير عن الحقائق و الأفكار وبين الجمال الأدبي في الصياغة، فسلاسة الأسلوب وجودته و ترابط العبارات يجعل النص متماسكا ، متناسقا، و تجلّى ذلك في حسن التخلّص و الترفّق في الانتقال من فكرة إلى أخرى و من جزء إلى آخر بحيث لا يشعر القارئ بفجوة في تسلسل

الخطاب أو عدم الانسجام و التكامل مما يكسبه وحدة عضوية ذات بعد نفسي مهم، وقدرة و فعالية في مجال التأثير في المتلقّي" "فهو حين يخاطب الاستعمار يقول: "زُيّن للاستعمار سُوء عمله فطغى، وبغى، وكفر وعتا، وأتى من الشرّ ما أتى.. إنّ الاستعمار لا يؤمن بالحالة حتّى نسأله الإنصاف لدينه الحق، ولكنه يؤمن بالقوة، فلنحذره عواقب الاغترار" 35

يا هؤلاء، إنّ الاستعمار شيطان، وإنّ الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، و إنّ الاستعمار شرو محال أن يأتي الشر بالخير، و محال أن تجني من الشوك العنب"36 وهو أسلوب حادّ ينمّ عن حرقة ومعاناة وايمان بقضية ومشروع مكن الابراهيمي من استرداف المتضادت كقيمة حجاجية تُشكل منظومة متجانسة وقد راكمت مخزونها المعرفي المتصل بالتراث والشعور بالحيف والقهر والعذابات في ظلّ استعمار غشوم. والصورة ذاتها التي ذاقت العبودية والذلّ، الضعّف والهوان، الموت والفناء يستحضرها الخطيب وقد امتزجت الرَّوحين مع المخاطبين. ليدرك أن التداول في حراك الحياة لإدارة الصراع بين الحق والباطل ، الشرّ والخير ،الحرب والسلم هو السمة الحضارية التي تحقق معنى قول الله تعالى:{**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا** } (سورة الكهف ،الآية 95) وجاءت القوة نكرة لتفيد لجأ "البشير الإبراهيمي" إلى تنويع النداء، لأن ذلك يغير من النبرة الخطابية، ويعدد آفاق المنادى. ولكنه يختار الصيغة التي تناسب المعاني التي سيبثها من وراء الأفق الذي يفتحه النداء. الذي يتجاوز الجزائريين إلى كل مؤمن والى كل مسلم يصله النداء. اليوم وغدا، لأن مضمون النداء يتسع لذلك ويتخط حدود المكان ويقفز على ضيق الزمان في رحابة المنهج الوسطي وشمول نظرته، واتساع رؤيته ؛ لانّ الاختلاف بين بني البشر لا يقف عند حدّ اللون أو البشرة أو الجنس أو اللغة أو الدم وإنما يتعداه إلى الفكر والمعتقد والمشاعر والوجدان .

وأنّ حبّ الوطن في فهم الإمام الإبراهيمي يذوب في الرسالة العالمية التي يحرص الخطيب بالطاقة التوجيهية أن نتكيف في التعامل معها على نحو يجعل الاختلاف والتنوع عامل إثراء وخصوبة وليس عامل تفرق وتشرذم وهذه أشبه بالروافد التي تصب في نهر كبير ليصف حالة الشعب الجزائري ، إذ يتقاسم الخطيب ومخاطبه المعرفة المشتركة والألم الواحد فقد فصّل في خطبته لما اقترف المستعمر من جرائم، وما حملت الأجساد من شهادات التعذيب، والتقتيل والتخريب، فقد أهلك الحرث والنسل، وتصور الخطبة جو ما بعد الاستعمار بالمقام الجنائزي المترع بالأحزان، يتحسس فيه كل جريح جِراحاته، ويتلمس كل مفتون آهاته، وحتى لا ينس الشعب الجزائري ما فعله الاستعمار. فهو يفضح أعماله، كي يحفظ التاريخ ذلك. ويُحفر في ذاكرة الشعب.

وقد شكل المشروع الإصلاحي محطة أخرى للوقوف على الملامح العامة التي ميزت مشروع الإبراهيمي وذلك ببحث طبيعته وتعيين مقاصده وإبراز أثر الإيديولوجيا في توجيهه، حيث أظهر التحليل أن مشروع الابراهيمي مثقل بهموم دينية واعتقادية لا تنقطع عن مشاغل مقارعة الاستعمار بالفكرة الاصلاحية والحجة الدامغة ولذلك هيمنت عليه المقصدية الوظيفية والغاية الإيديولوجية. فقد كان الإبراهيمي الذي استطاع أنّ يماهي منتوجه القولي المنبري

بماهية منتوجه المكتوب، ففاعليته الخطابية وتعبيراته الفريدة سواء على المنبر خطيباً، أم جلس إلى الصحيفة يحبر المقالة، يخطب ليفيد ويقنع أكثر مما كان يكتب ليمتع. بأفكاره ومواقفه المرتهنة أصلا وفصلا إلى مقررات الفكر الاصلاحي الذي كانت تقوده جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وهو يصوغ خطابه في ضوء الكفايات التأويلية التي يفترضها في متلقيه. تجسدت في الكشف عن الاستراتيجيات التي انبنى عليها الخطاب الإقناعي في هذه الخطب التي خصصها الخطيب للدفاع عن الهوية في مختلف تجلياتها .

ويبقى العشق للأدب والذوق للمنثور خالدا هو إكسير حياة الإنسان الذي يرقى به إلى مستوى الكائن المبدع والمبتكر، فالأديب يعتبر الكتابة والخطبة موقفا من الذات ومن الوجود فيستغلهما كتشكيل لغوي جميل للتعبير عن الأشياء التي وصفت في تراثنا الندي بالأشياء التي تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة. وهي أسس أجملناها في الاختيار والرواية والشرح والتوثيق. لينشغل البحث بعد ذلك بتحليل الخطب تحليلا حجاجيا توخى الكشف عن المقاصد التي وجهت صياغتها والغايات التي حفزت على إنشائها مما أتاح لنا أن نثبت أن الحجاج آداة تداولية توسل بها الخطيب لتحقيق تواصل فعّال مع متلقيه من أجل إقناعه بجملة من المضامين الفكرية والعقدية والسلوكية. وقد أسلمنا التحليل إلى استخلاص نتيجة نهائية مؤداها أن عمل الابراهيمي في صناعة الحجاج ،وفنيات بناء الخطاب يتكأ على مشروع ثقافي لا ينقطع عن المقاصد الفكرية والعقدية التي تحكمت في بلاغته النثرية. ذلك أنّ الكفاءة التداولية عند الابراهيمي تجتمع فيها عدة كفاءات من الملكة المعرفية والمنطقية والاجتماعية والإدراكية تعمل بشكل متفاوت تراعي خصوصية المجال التداولي، باعتبارها بُنى غير معزولة عن سياقات استعمالها، بل أقوال وألفاظ تترتب عليها مجموعة من الأفعال والمواقف في بعدها الإنساني

لقد كان هذا البحث يتدرج متوسلا المقاربة في مجال الدراسات اللّسانية إلى ما بعد اللّسانيات ومحاولة تأطيرها نظريا ومعرفيا من خلال المجال التداولي الذي يتحرك في إطاره الخطاب ،ويستمد منه معانيه فيما توفره لسانيات النّص من عناصر للتحليل وكيفية تطبيقها عمليا على خطب الابراهيمي المنبرية والاعلامية؛ لنعرف مدى كفاءتها في ملامسة المعاني المرادة التي تتغيا الهموم المصيرية للشعب الجزائري ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، فتجلت بعض المرتكزات التداولية؛ لأن الابراهيمي لم يكن مجرد أديب وناقد ومصلح ومحبر للمقال وإنما كان، قبل هذا وبعده، متكلما بارعا، وخطيبا مفوها. إنه صاحب مقالة ورئيس نحلة. ولذلك لم يعتن بالجانب الأدبي والجمالي في الخطاب قدر عنايته بفعالية الخطاب ونجاعته؛ أي الجوانب الحجاجية والاستدلالية في الخطاب البليغ. ومن هنا كان البلاغة الحجاجية، عنده ، منظورا إليها من زاوية وظيفتها العملية والإنجازية؛ أي القدرة على التأثير في المتلقي لتعديل موقفه أو سلوكه. في التداخل بين مواد نصية متنوعة أدبية وغير أدبية يمثل سمة بارزة في تكوين بلاغة النصوص التي تتخذ شكلا موسوعيا عند الابراهيمي، حيث يستند الخطيب في هذا النوع من التأليف إلى استدعاء الشواهد وتنوع المصادر. ولعل هذا التداخل بين الأنواع والأشكال والأصناف أن يكون المدخل الملائم لقراءة النص الموسوعي قراءة تتيح الكشف عن بلاغته التداولية.

وقد توصلْنا إلى أن الخطاب هو تعبير عن حقائق الدين والكون، والإنسان عند محمد البشير الإبراهيمي يحملُ ملامح إقناعيةً، ويكتسي قيمةً حجاجيةً، طالما أنّه يسعى إلى التأثيرِ في المتلقي وتغييرِ بعضِ مواقفه. وبما أن الخطاب الحجاجي عند الابراهيمي، خطاب أدبي، فإنّنا نلمس فيه حضور الوظيفة الجمالية الفنية، لكنَّها هنا تخدم الجانب الحجاجي، فالخطيب يزاوج بين الإمتاعِ والإقناع، كما تحضر في المدونة مختلفُ استراتيجيات الخطابِ وآليات الحجاج. كاعتماد السلالِم الحجاجية المؤلّفة من حججٍ متدرجة ومنسجمة التي تخدم نتيجةً ما، أو توظيف الاستعارات بوصفها أقوى الآليات الحجاجية في إحداث التأثيرِ والاقتناع، إذ يتقاطع فيها صدقَ الحجة بجمالِ التشكيلِ الفني، وكفاءته الترميزية والتأثيرية بشكلٍ مؤثِّر التي تتجاوز بالنصِ تخوم تاريخه وواقعيته.

**قائمة المراجع والمصادر:**

**القرآن الكريم برواية حفص.**

1-أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار: المفاهيم و الآليات منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطابات، جامعة وهران، ط1،

2-أبو القاسم سعد الله.الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي،.موقع البشير الإبراهيمي. مقالات ودراسات https://binbadis.net/archives/228

3-البيان والتبين ، .الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت ،ج1،ط2 ،

4-جريدة البصائر، العدد 11 سنة 1947 م.

5- جوزيف هورس ، قيمة التاريخ ،.. (تر) نسيم نصر. ص:10. منشورات عويدات ط 3. لبنان 1986.

6-حبيب مونسي فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ،. دار الغرب. وهران. الجزائر. 2000. ص174.

7-الحجاج واللغة أبو بكر الغراوي ، ، العمدة ، ط1 ،2006 ،ص 14-15

8-الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم ، سورة النمل ، نموذجا ، مجلة اللغة والآدب ،جامعة الجزائر، عدد12ديسمبر،1997م.

9- الشيخ في الاحتفال بيوم الجزائر بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام .1958 .

10-طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط2 ،2000 .

11 -طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997

12-عبد الرحمان شيبان ، الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي ، مجلّة الثقافة، العدد 87، ماي 1985.

13- عبد السلام عشير، عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج،إفريقيا الشرق، المغرب، دط ، ت:2006.

14-عبد الله ركيبي، الخطابة في النثر الجزائري الحديث ، مجلّة الأصالة، العدد 25، جامعة الجزائر، جوان 1975.

15-عبد الله صوله، الحجاج ، أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الجديدة العدد /2778 /15 أبريل 2010 م فضاءات الوسط /http://www.alwasatnews.com

16-عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر1954،1931، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1983.

17- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ،تداولية ، مقدمة.مط ،دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت، لبنان،ط1 ،،2004 .

18-علي الشعبان ، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل، دار الكتاب الجديدة ،طرابلس، ليبيا ،2010م. ط1

19-محمد عباس، البشير أديباً ، رسالة ماجستير في جامعة بغداد ،1983، بقية المعلومات؟

**الهوامش:**

[1]. د علي الشعبان ، الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل. ، دار الكتاب الجديدة ،طرابلس، ليبيا ،2010م. ط1، ص 50

2. ، أبو عثمان الجاحظ ،البيان والتبيين، ،تحقيق فوزي عطوي، بيروت: دار صعب. س1968. ، ط1، ص64.

3 ، عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية ،تداولية ، مقدمة.مط ،دار الكتاب الجديدة المتحدة بيروت، لبنان،ط1 ،،2004 ص،7.

4 نجد ضمن هذا التّصور للحجاج، صدى لتعريف بيرلمان ، إذا يقول: "l'étude de l'argumontaion analysera les techniques discursives premettant de pro-voquer ou.d'acuroitre l'adhésion d'un ouditoir oux théses qu'on présente a son assentiment,"in encyciopoedia universalts.version 10(c-d),(art,argumentation).

[5]. ، د، علي الشعبان ، م س،ص 86 .

[6].عن صمت الخطاب ومضمره ينظر في ذلك المؤلفات التالية foucault(Michel), L'archéologie du savoir,Editions Gallimard, Paris, 1972

[7]- طه عبد الرحمان اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997 ص226.

[8]. طه عبد الرحمان في أصول الحوار وتجديد الكلام، ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ،2000، ط1 ص65.

* المجالَية مصطلح جغرافي وظف في المجال السّياسي ثم في المنهج التداولي ثم الحجاج.

[10]: ينظر: عبد السلام عشير ،عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج ، إفريقيا الشرق، المغرب، دط ، ت:2006. ص: 21.

11: محمد عباس ،البشير أديباً ، رسالة ماجستير في جامعة بغداد ،1983، ص185.

[12]. عبد الله ركيبي، الخطابة في النثر الجزائري الحديث ، مجلّة الأصالة، العدد 25، جامعة الجزائر، جوان 1975، ص64.

13 عبد الرحمان شيبان الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي، مجلّة الثقافة، العدد 87، ماي 1985، / .س،ص73

14 . : عبد المالك مرتاض فنون النثر الأدبي في الجزائر1931،1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1983 ص282.

[15] حبيب مونسي، فلسفة القراءة وإشكاليات المعنى ، دار الغرب. وهران. الجزائر. 2000. ص174.

[17] ، أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبين ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل ، بيروت ،ج1،ط2 ،ص .139.

[18]. ، الجاحظ ، م س، ،ج1، ط2، ص 85.

[19] نشرت في العدد 11 من جريدة البصائر سنة 1947 م.

[20]. جريدة البصائر، محمد البشير الإبراهيمي (حقائق) العدد2 – 1948.

[21]. جوزيف هورس، قيمة التاريخ ، (تر) نسيم نصر. ص:10. منشورات عويدات ط 3. لبنان 1986.

[22]. أبو القاسم سعد الله.الثقافة التاريخية عند الشيخ الإبراهيمي،.موقع البشير الإبراهيمي. مقالات ودراسات https://binbadis.net/archives/228

[24]. أحمد يوسف، سيميائيات التواصل و فعالية الحوار: المفاهيم و الآليات، منشورات مختبر السيميائيات و تحليل الخطابات، جامعة وهران، ط1،

[25]– أبو عثمان الجاحظ، م س، ص 115.

[26] . أبو بكر الغراوي ، الحجاج واللغة العمدة ، ط1 ،2006 ،ص 14-15

[27] . طه عبد الرحمان ،في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، ص 38

[28] . عبد الله صوله، الحجاج ، أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الجديدة العدد /2778 /15 أبريل 2010 م فضاءات الوسط / http://www.alwasatnews.com

[29] ، طه عبد الرحمان ،اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998 ط،1 ص218

[30] . كلمة الشيخ في الاحتفال بيوم الجزائر بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام .1958 الشبان المسلمين) مجلة (القاهرة، العدد66، 1962، ص7 .

31 . كلمة الشيخ في الاحتفال بيوم الجزائر بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام .1958 الشبان المسلمين) مجلة (القاهرة، العدد66، 1962، ص7 .

[32] . كلمة الشيخ في الاحتفال بيوم الجزائر بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام .1958 الشبان المسلمين) مجلة (القاهرة، العدد66، 1962، ص7

33الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل نموذجا، مجلة اللغ والآدب، جامعة الجزائر،عدد12ديسمبر،1997م،ص. 330

34–البشير الإبراهيمي أديبا . ،محمد عباس ،ديوان المطبوعات الجامعية – المطبعة الجهوية بوهران الجزائر–1984–

35 .عيون البصائر.دار الغرب الاسلامي/ 1997م بيروت الطبعة الاولى/ ص 181.